جهود علماء توات في الدرس اللغوي خلال القرنين الثاني عشر والثالث عشر الهجريين : دراسة في الأنماط والأشكال

أ. بقادر عبد القادر

أستاذ مساعد بجامعة ورقلة

ملخص

تتناول هذه الورقة موضوع الدرس اللغوي في إقليم توات خلال القرنين الثاني عشر والثالث عشر الهجريين، دراسة في الأنماط والأشكال، وذلك لتنوع أنماط وأشكال الدرس اللغوي بهذا الإقليم؛ بين نظم، وشرح، وتحشية، وتأليف. وجاء اهتمام علماء توات بالدرس اللغوي تبعا لاهتمامهم بالدرس القرآني والحديث النبوي الشريف. وطلبا لفهمهما، وتبعا لذلك نتج عنه تراث علمي هائل ضاع الكثير منه وما قاوم الضياع فهو يعاني الإهمال والتفريط. إن الدرس اللغوي بتوات بدأ مع دخول العرب المسلمين إلى الديار التواتية، ثم نما وترعرع بها واستوى في القرنين الثاني عشر والثالث عشر الهجريين، مما خلّف لنا مخطوطات لغوية كثيرة على أنماط وأشكال مختلفة. وكان من بين أبرز علماء توات الشيخ سيدي محمد بن أب المزمري (1160هـ) الذي ألف منظومات وشروح في مختلف الفنون اللغوية من نحو وصرف وعروض، وغيره في ذات الفنون كثيرون.

الكلمات الدالة : الدرس اللغوي، توات، الأنماط الأشكال

Abstract

This article has beena linguistics course on"Structure and Style"in the Tuat during the twelfth and thirteenth century. Its rise was related to activities of a group of scholars, including Sheikh Sidi Mohamed Ben Abi Elmezmari (1160 H.).

The interest of researchers for linguistic courses was as high as to Quranic and Hadith courses. From this linguistic heritage, we have many manuscripts written in classical Arabic language, partly kept in the Ksour of Tuat. However, this heritage needs more attention.

Keywords : linguistics, tuat, style, structure

Résumé

Ce present article fait l'objet d'un cours de linguistique «structure et style» dans le Touat durant le XIIème et XIIIème siècle. Son essor était lié aux activités savantes d'un collectif de lettrés. On peut citer parmi eux cheikh Sidi Mohamed Ben Abi Elmezmari (1160 H.).

L'intérêt des chercheurs pour les cours de linguistique était aussi intense que pour les cours coraniques et les hadiths. Ce qui résulte de ce patrimoine linguistique inestimable ce sont des manuscrits rédigés en langue arabe classique conservés en partie dans les ksour de Touat. Toutefois,ce qui reste de cet héritage souffre de négligence.

Mots clés : linguistique, touat, structure, style

مقدمة

اهتم أهل إقليم توات منذ دخول الدين الإسلامي ربوعه بالقرآن الكريم وتدريسه حفظا ودراسة، كما كان لهم اهتمام بالحديث النبوي الشريف ومن خلالهما دراسة اللغة العربية بكل علومها : نحو وصرف وبلاغة. بذلك ظهر لنا من خلال آثارهم المخطوطة وما تبقى منها جهود علماء توات في الدرس اللغوي في أنماط مختلفة من شروح، وحواشي، وتعليقات، وكذا المنظومات. فهذه الأنماط كلها كانت دليلا قاطعا على اهتمام علماء توات بالدرس اللغوي عموما، لكن قبل التطرق إلى تلك الجهود وأنماطها علينا أن نطل على الجانب التاريخي لتوات تسميةً، وإعمارا.

تسمية الإقليم

تعددت الروايات واختلفت حول تسمية الإقليم بهذا الاسم "توات"، حتى أنها وصلت إلى حد التضارب، وسوف أذكر بعض الآراء والروايات التيوردت حول تسميتها.

يرى الشيخ عبد الرحمن السعدي في كتابه "تاريخ السودان" : أن سلطان مالي كنكن موسى كان ذاهبا إلى الحج في قوة عظيمة وجماعة كبيرة من جند وعبيد : "ومشي بطريق ولات في العوالي، وعلى موضع توات فتخلّف هنالك كثير من أصحابه لوجع رِجْلٍ أصابهم في ذلك المشي تسمى توات في كلامهم فانقطعوا بها وتوطنوا فيها، فسمي الموضع باسم تلك العلة"[1]

وقال الشيخ محمد بن عبد الكريم بن عبد الحق بن البكري في كتابه درة الأقلام: " أن سبب التسمية يعود إلى الدولة الموحدية، فملوك هذه الدولة ما عرفوا هذه الأرض إلا بكونها منطقة مليئة بالخيرات، فدأبوا على أخذ ما فيها من أتوات، ومن يومها غلب عليها الوصف فصار أهلها يُعرفون بأهل الأتوات، فحُذِف المضاف وأقيم المضاف إليه مكانه، ثم سقطت أداة التعريف فأصبحت توات"[2] وهو ما يرجحه حوتية في كتابه[3]

وقال الشيخ مولاي أحمد الطاهري الإدريسي الحسيني : "وإنما سميت بهذا الاسم لأنها تواتي للعبادة، أي أنها تليق بها، لأن كل من قدم إليها من الأولياء المنقطعين تواتيه للعبادة، فلذلك سكنها كثير من أولياء الله الكُمّل العارفين."[4]

[1] عبد الرحمن السعدي (1858م)، تاريخ السودان، طبعة هوداس، ص. 7.
[2] محمد بن عبد الكريم البكري،درة الأقلام في أخبار المغرب بعد الإسلام، مخطوط، ص.16.
[3] حوتية محمد الصالح (2007م)، توات والأزواد، دار الكتاب العربي، الجزائر، ط :1، 38/1
[4] مولاي أحمد الطاهري الإدريسي الحسيني، نسيم النفحات من أخبار توات ومن بها من الصالحين والعلماء الثقات، مخطوط، بخزانة كوسان، ص.24.

ورأى "محمد بن المبارك" أن كلمة توات أصلها أعجمي ؛ فقد كانت قبائل من لمتونة جاءت إلى توات في منتصف القرن السادس الهجري(12م) فأطلق هذا اللفظ[5].

ويروي "ماندوفيل" mandeville عن اسم توات أنه من إطلاق الطوارق والعرب على مجموعة من الواحات تتواجد بالمنخفض العميق لوادي الساورة، ووادي مسعود[6].

وجاء في مضمون رواية "روكليس"RECLUS أن أصل كلمة توات بربري معناه الواحة[7].

ويرى الأستاذ بوساحة أن توات تطلق على الأماكن المنخفضة قليلا في اللهجة البربرية، فيقول : "وفي جسم الإنسان فإن المقصود بكلمة "توات" هو ذلك الجزء الداخل من جسم الإنسان، والذي يقع تحت القفص الصدري، وفي جسم الحيوان، فإن الثنايا التي تشكل الأمعاء يطلق عليها اسم ثوات. إذن فكلمة توات أو ثوات معناها شيء منخفض أو داخل، أو شكل يحمل صورة مجموعة الثنايا"[8].

أما محمد الرصّاع فقد ذكر بأن اسم توات ما هو إلا اسم لأحدبطون قبائل الملثمين، إذ قال : " والملثمون هم قبائل الصحراء بالجنوب، عُرفوا بهذا الاسم لأنهم يتلثمون بلثام أزرق، ومنهم طوائف التوارق ولمطة ولمتونة والتوات"[9].

أما محمد بن عومر بن محمد بن أحمد بن الحبيب بن محمد المبروك البوداوي صاحب مؤلف "نقل الرواة عن من أبدع قصور توات"، فيرى أن أصل التسمية يرجع لعهد الفتح الإسلامي للمنطقة، حين فتح عقبة بن نافع المغرب وبعد وصوله إلى توات سنة 62هـ/681م سأل ما إذا كانت المنطقة تواتي لنفي العصاة، فأجابوه بأنها تواتي فانطلق اللسان بذلك[10].

---

[5] فرج محمود فرج (1977م)، إقليم توات بين القرنين 18 و19 الملاديين، ديوان المطبوعات الجامعية، الجزائر، د ط، ص.02.

[6] أحمد العماري (1988م)، توات في مشروع التوسع الفرنسي بالمغرب من حوالي 1850 م إلى 1902م، منشورات كلية الآداب والعلوم الإنسانية بفاس، ط: 01، 1408هـ ، ص. 11.

[7] المرجع السابق، ص. 11.8

[8] مولاي أحمد الطاهري الإدريسي الحسيني، نسيم النفحات من أخبار توات ومن بها من الصالحين والعلماء الثقات، مخطوط، بخزانة كوسان، ص.24.

[9] بوساحة (2002م)، أصل أقدم اللغات في أسماء أماكن الجزائر، دار هومة الجزائر، د ط، ص. 79.

[10] الرصاع أبو عبد الله محمد الأنصاري (1976م)، فهرست الرصاع، تحقيق وتعليق محمد العنابي، تونس: المكتبةالعتيقة، ط : ص: 127.

ومن بين المؤرخين الذين حاولوا إيجاد تفسير لغوي لتسمية توات، المؤرخ الفرنسي مارتان –A.G .Martin والذي ذكر بأن أصل التسمية يعود إلى مفردة (وَا = Oa)، التي توجد في عدة لغات كالعربية والإغريقية. وقد وُجدت هذه المفردة لدى زناتة، وهي تعبير لغوي أضيف إليه حرف التاء في المقدمة وفي المؤخرة فصار توات[11].

كما أن صاحب مخطوط "درة الأقلام في أخبار المغرب بعد الإسلام" سيدي محمد عبد الكريم بن عبد الحق التمنطيطي، هو الآخر أوجد للفظ توات سندا لغويا يعنى التوت، وهو من الفواكه والجمع "أتوات" لذا عرفت البلاد بأهل الأتوات وبعد حذف التعريف والمضاف صارت "توات"، والذي يدل على المنطقة الممتدة جغرافيا من تبلكوزة إلى عين صالح، أما تاريخ عمارتها فيرجع إلى ما قبل الإسلام، وكانت تسمى بالصحراء القَبْلية ثم كثرت عمارتها بعد جفاف نهر قير[12].

كما ذهبت الباحثة بن عبد المؤمن بهية إلى أن أصل الكلمة "توات" بربري، لأن أول من قطن المنطقة البربر الذين قاموا باختطاط القصور التي حملت أسماءهم إلى غاية اليوم رغم التعريب الذي مس الإقليم[13].

ومن خلال ما سبق ذِكره يتضح أن أصل كلمة توات شمل عدة تفسيرات ومعان متباينة، منها ما كان تاريخيا، ومنها ما كان تفسيرا لغويا محضا. فبالنسبة للرواية التي جعلت التسمية مرتبطة بالإتاوات فهي مرفوضة، لأن توات أدت المغارم لجميع الدويلات القائمة بالمغرب، كما لو أن كل إقليم أدى الإتاوة لدولة ما سمي بتوات لتعدد هذا الاسم وانتشر في سائر الأقطار، والأقرب إلى الصواب هو ما ذهب إليه بعض الباحثين إلى أن أصل الكلمة بربري.

وما يرجح هذا الرأي من بين الروايات المختلفة هو أن أصل التسمية بربري، ونعلل لذلك بتسمية جل قصور توات التي هي تسميات غير عربية (بربرية)؛ فهي تبدأ بحرف التاء وقد تختم به كما هو الحال في تسابيت، وتوات، تمنطيط، وتبلكوزا، تيمي، ... وكذلك

---

[11] الصديق أحمد (2003م)، حاج أحمد، التاريخ الثقافي لإقليم توات من القرن 11–14هـ/17–20م، ط: 1، ص:27.

[12] A.G.P.MARTIN (1908), A la frontière du Maroc les oasis sahariennes. Alger : Edition de L'imprimerie Algérienne, P:41.

[13] حوتية محمد الصالح، مرجع سابق 38/1.

أن أصل السكان من البربر، والرواية القائلة بأنها الأراضي المنخفضة فعند قدومك إليها من جهة الشمال تجد نفسك تنحدر نحو الأسفل، وكذلك معظم القصور تقع في منخفضات الأودية، لملائمة أراضي هذه الأخيرة للزراعة.

وقد استبدل اسم توات بأدرار مع نهاية القرن الثالث عشر وبداية القرن الرابع عشر الهجريين ؛ أي مع طلائع الاستعمار الفرنسي على المنطقة سنة 1900م، وكلمة ادرار هي تصحيف لكلمة "أدغاغ" والتي تعني في اللغة الأمازيغية الحجر، كما أن بجانب مقر الولاية ادرار قصر يعرف بأدغا.

أصل سكان توات

يتشكل سكان توات من ثلاث فئات تختلف عن بعضها البعض اختلافا ظاهرا؛ وهم البربر، والعرب، والزنوج. إن إقليم توات كان مفتوحا على هجرات القبائل المختلفة على فترات متعاقبة، وفي ظروف مختلفة منذ الفتح الإسلامي للمغرب العربي. وهناك من يقول قبل ذلك بقرون مشيرا إلى عهد الفراعنة[14]، وقد استقرت القبائل بالإقليم فشكّلت المدن والقصور. وفي ما يلي نستعرض تشكيلة سكان الإقليم.

1. البربر

هم السكان الأصليون لمنطقة المغرب العربي[15]، وكانوا أول من اختط الإقليم حسب كثير من الآراء ؛ قال ابن خلدون : "... التي اختطها الزناتة بالقفر مثل قصور السوس غربا، ثم توات ثم جودة [بودا]، ثم تمنطيط، ثم واركلان ثم تسابيت ثم تيكورارين شرقا، وكل واحد من هذه وطن منفرد يشمل على قصور ذات نخيل وأنهار وأكثر سكانها من زناتة وبينهم فتن وحروب على رياستها"[16] وهو ذات الرأي الذي ذهب إليه سيدي محمد بن المبروك في كتابه[17]، إذن من المؤكد أن البربر (الزناتة) هم أو من اختط قصور توات

بن عبد المؤمن بهية (2006م)، الحياة الاجتماعية بإقليم توات خلال القرنين الثامن عشر والتاسع عشر الميلاديين (من خلال نوازل الغنية للبلبالي)، رسالة ماجستير، قسم الحضارة الإسلامية، وهران، ، ص : 3و4.

[15] الصديق حاج أحمد، ص. 39، مرجع سابق.

[16] محمود شيت خطاب (1977م)، عقبة بن نافع الفهري، دار الفكر للطباعة والنشر والتوزيع، بيروت، لبنان، ط 5، 1397هـ ، ص. 23.

ابن‌خلدون (2000م)، تاريخ ابن خلدون المسمى ديوان المبتدأ والخبر في تاريخ العرب والبربر ومن عاصرهم من ذوي الشأن الأكبر، تح: خليل شحادة، دار الفكر للطباعة والنشر والتوزيع، بيروت، لبنان، د ط، 1421هـ ، 6/ 77 و78

وقورارة وتيديكلت، وهذا ما يؤكده واقع أسماء قصور إقليم توات ؛ من قصور قورارة، مرورا ببعض قصور تيمي وتوات، وصولا إلى قصور تيديكلت.

2 . العرب

هم الوافدون على المغرب العربي مع الفتح الإسلامي لبلاد المغرب سنة 21هـ على يد عمرو بن العاص رضي الله عنه، توافد العرب على إقليم توات أفوجا وفي أزمنة متباعدة مثل أولاد محمد، والخنافسة، والمحارزة، وأولاد طلحة، وأولاد باحمو، وأولاد أعمر أملوك، وأولاد غانم، وأولاد الحاج، وأولاد منصور، وأولاد عابد، والأنصار، وغيرهم[18].

يبدو أن القبائل العربية التي هاجرت إلى توات كان لها وقع إيجابي على الإقليم؛ إذ مكّنت للغة العربية أن تتبوأ تلك المكانة التي ستأخذها في القرون القادمة، كما مكّنت للدين الإسلامي من الانتشار في هذه الربوع الطيبة، كما حملت معها المدنية والعمران؛ فقد ظهر بعد هذا القرن في توات علماء حملوا لواء الإسلام واللغة العربية إلى إفريقيا الغربية، وخلّفوا بها آثارا مازالت حبيسة الخزائن المنتشرة هنا وهناك في ربوع الإقليم، وذلك في مختلف الفنون والعلوم.

3. الموالي (الزنوج)

ينحدرالموالي من العبيد الذين جلبوا من بلاد السودان للعمل بالبساتين والزراعة، ويطلق عليهم اليوم اسم (الحراثين) وهي مشتقة من العمل الذي كانوا يمارسونه ألا وهو الحرث والزراعة، وبمرور الزمن تعربت ألسنتهم؛ فكان منهم مدرسون للقرآن الكريم واللغة العربية، وتجار. ونتج عن هذه التركيبة الاجتماعية أربع طبقات فصار المجتمع التواتي طبقيا، على النحو التالي :

- الأشراف : وهم آل البيت.
- المرابطون : وهم أبناء الأنصار وبقية الصحابة رضوان الله عليهم.
- العرب (الأحرار)، والزناتة
- الحراثين

[18] رأي سابق، ينظر هذا البحث في تسمية الإقليم.

الحركة الثقافية واللغوية بإقليم توات

إن الوضع الثقافي في المنطقة انشئت انتعاشا منذ دخول العرب والدين الإسلامي إلى هذه الربوع، حيث حمل معه حركة ثقافية واسعة فما إن تمكن الإسلام من قلوب السكان، ووفد على المنطقة العلماء والمشايخ من جميع الجهات، وأنشأت الزوايا والمدارس حتى راح الناس يقبلون على تلقي العلم والمعرفة من أفواه العلماء في مختلف العلوم الشرعية واللغوية والعقلية، في تلك المدارس والزوايا، وبتقدم العصور أصبح القرنان الثاني عشر والثالث عشر الهجريين (18و19 الميلاديين) بمثابة عصر ذهبي في تاريخ الإقليم[19]، والسبب في ذلك هو حضور عدد كبير من العلماء في هذه الفترة التاريخية؛ فقد عكف الكثير من مشايخ توات المشهود لهم بالكفاءة على دراسة آداب اللغة العربية وأصول الدين، إلى جانب اشتغالهم بالتدريس في المساجد والزوايا وغيرها من مؤسسات التعليم، التي كانت منتشرة داخل قصور توات[20]، وهكذا لم يخلُ قصر أو مدينة تواتية من مدرسة قرآنية أو زاوية، وقد تكون أكثر من مدرسة؛ منها ما هو رئيسي، ومنها ما هو فرعي، كما كانت تلك الزوايا تمتلك مكتبات وخزائن للكتب، وهكذا أسهم شيوخ الزوايا ومدرسو القرآن الكريم في المدارس والزوايا في نهضة البلاد وبث الروح الدينية والثقافة فيها ؛ من أدب، ولغة، وتفسير، وحديث، ...، وقد عثرنا لعلماء توات على عدة مؤلفات مخطوطة في الخزائن التواتية وغيرها من خزائن المخطوطات، إلا أن الملفت للانتباه هو تأليفهم على طرق عدة عالجوا بها الموضوعات اللغوية، والفقهية وغيرهما ؛ وعلى ضوء ذلك يمكن تقسيم مراحل الدرس اللغوي في إقليم توات إلى :

المرحلة الأولى

وهي مرحلة التعلّم والأخذ، وفيها كان أهل توات تلاميذ للعلماء الذين حلوا بتوات من أمثال الشيخ مولاي سليمان بن علي[21] الذي أنشأ أول زاوية له بقصر أولاد أوشن سنة 585هـ، وبها تعلم الكثير من التلاميذ،وفي سنة 815هـ قدم القاضي أبو يحي بن محمد

[19] محمد باي بلعالم (1985م)، "التعريف ببعض الجوانب من منطقة توات وحضارتها"، (محاضرة) ألقيت في أعمال المهرجان الثقافي الأول للتعريف بتاريخ منطقة أدرار، نقلا عن الشيخ محمد بن عبد الكريم المغيلي، ولاية أدرار 13 ـ14 شعبان 1405هـ / 3 ـ4 ماي ، ص.44.

[20] أحمد أبا الصافي جعفري (2004م)، محمد بن اب 1160هـ حياته وآثاره، دار الكتاب العربي، الجزائر، ط: 01، 1425هـ ـ ، ص:32.

[21] فرج محمود فرج، مرجع سابق، ص: 85.

لتوات وتولى القضاء بها، وفي سنة 845هـ جاء السيد يحي بن إيدير شيخ المغيلي، فولي قضاء توات، كما قدم الإمام السيد عبد الله بن أبي بكر العصنوني فكان دخوله سنة 870هـ، وفي السنة ذاتها جاء الإمام الشيخ محمد بن عبد الكريم المغيلي لتوات[22]، وكان لهؤلاء نشاط علمي واسع حيث أنشأوا الزوايا والمدارس بمساعدة الأهالي، فتكوّن على أيديهم عدد كبير من المشايخ الذين حملوا بعدهم راية العلم والمعرفة في الإقليم.

المرحلة الثانية

وهي مرحلة الخروج والبحث عن العلم في الحواضر الإسلامية داخل الوطن وخارجه مثل تلمسان، وسجلماسة، وفاس، وشنقيط، ومصر، وتونس، والتكرور وغيرها، ومن التواتيين الذين شدوا الرحال إلى الحواضر الإسلامية أذكر الشيخ عبد الكريم بن امحمد بن أبي محمد التواتي التمنطيطي (1042هـ)[23] الذي رحل إلى الجزائر وأخذ عن عالمها السعيد بن إبراهيم قدورة، وعن أحمد المقّري التلمساني الذي كان بالقاهرة، ومنهم كذلك الشيخ عبد الرحمن بن عمر التينيلاني (1121هـ ـ 1189هـ)[24] الذي توجه إلى عدة جهات كالتكرور، وفاس، والحجاز، والقاهرة التي توفي بها، ومنهم الشيخ عمر بن عبد القادر التينيلاني[25]، الذي كان له كرسي التدريس بمسجد القرويين بفاس، ومنهم عبد الرحمن بن إدريس[26]، الذي سافر إلى الجزائر وأخذ عن علمائها، ثم فاس، والحجاز وتوفي أثناء عودته من الحج.

---

[22] هو أبو داود سليمان "الملقب بـ أوشن" بن مولاي علي الشريف بن أعمر بن أحمد بن محمد بن أبي بكر بن أحمد بن علي يرتفع نسبه إلى سيدنا علي كرم الله وجهه، وُلد حوالي سنة 549 هـ/ 1154م، وصل إلى توات حوالي سنة 591هـ، واستقر به المقام بقصر أولاد أوشن حيث أقام زاويته لطلاب العلم وإطعام الطعام، إلى أن توفي سنة 670هـ.

[23] محمد باي بلعالم، ص: 44 و45، مرجع سابق.
هو عبد الكريم بن أحمد بن أبي محمد التواتي موطنا، التمنطيطي مسكنا، ولد سنة 996هـ، بدأ دراسته بمسقط رأسه عند أبيه أحمد، ودرس عن غيره، ثم شد رحاله إلى الجزائر وتلمسان ومصر...وعاد بعد ذلك إلى توات وتولى بها القضاء، من مؤلفاته اللغوية غاية الأمل في إعراب الجمل وهو شرح على لامية ابن المجراد.

[25] عبد الرحمن بن عمر بن محمد بن معروف بن يوسف بن أحمد بن يوسف التينيلاني، أخذ عن شيوخ من توات وآخرين من أقطار أخرى كالمغرب وغيرها؛ فمن التواتيين عمر بن عبد القادر التينيلاني(1152هـ)، والشيخ محمد بن اب المزمري (1160هـ)، ومن المغاربة أحمد بن عبد العزيز بن إبراهيم الهلالي، كان أحد أعلام المنطقة وإليه تشد الرحال في طلب العلم، له كتاب في القراءات، وله مختصر الدر المصون في إعراب القرآن.

[26] عمر بن عبد القادر التينيلاني (1098 ـ 1152هـ)ولد بقرية تينيلان عام 1098هـ حفظ فيها القرآن الكريم وفيها كانت بدايته العلمية، ثم انتقل عام 1117هـ إلى مدينة فاس المغربية تلقى من شيوخها، ثم جلس للتدريس بجامع القرويين إلى سنة 1129هـ، ثم عاد إلى بلدته وجلس فيها للتدريس، ثم تولى القضاء عام1133هـ، ومال في آخر عمره إلى التصوف فاعتزل الناس، توفي 3 من ربيع الأول 1152هـ.

المرحلة الثالثة

وهي مرحلة العطاء والإنتاج والنضج وتكاد تكون هذه المرحلة متداخلة مع المرحلة السابقة وفيها بدأ التواتيون في التأليف اللغوي ؛ على أنماط وأشكال مختلفة منها الشروح التي تمثلت في شرح أمات الكتب اللغوية نذكر منها لامية ابن المجراد والتي جعل عليها عبد الكريم بن امحمد شرحا سماه "غاية الأمل في إعراب الجمل"، والرائد في المرحلتين يتجلى لنا الشيخ ابن أب المزمري (1160هـ)[27]، الذي كتب في شتى المجالات من نحو، وصرف، عروض، وفقه، فكان كثيرا ما يلجأ إلى النظم ثم يشرحه كما فعل مع مسائل التمرين التي نظمها ثم شرحها في كتاب سماه "روضة النسرين في مسائل التمرين"[28]، كما كانت له مؤلفات أخرى في النحو والصرف وعروض...

إن المتتبع لتلك المراحل يلاحظ أن الدرس اللغوي بتوات أخذ يتطور بمرور التاريخ والزمن شيئا فشيئا حتى وقف على قدميه وصار ناضجا منتِجا، أسهم في إثراء الدرس اللغوي العربي، إلا أن الشيء الذي نتحسر عليه هو ضياع الكثير من تلك الإبداعات والإسهامات بسبب أو بآخر، وما تبقى منها فهو في حالة يرثى لها حبيس الخزائن ينتظر من يجمعه ويحققه.

أنماط وأشكال المؤلفات اللغوية بتوات

بعد أن عرفنا مراحل الدرس اللغوي بتوات، نجد أنفسنا مجبرين على الحديث عن المؤلفات اللغوية التي ألفها علماء هذا الإقليم، والتي كانت على أنماط وأشكال مختلفة، وأرى الدافع الرئيسيإلى التصنيف على هذه الأنماط والأشكال كان بالدرجة الأولى هو الحفاظ على التراث اللغوي وجمعه ومن ثم صبه في قوالب محددة، وقد حصرت هذه القوالب في الأنماط والأشكال الآتية :

---

[27] عبد الرحمن بن إدريس(1181هـ ـ 1233هـ) : كان عالما ماهرا بالفقه والتفسير، له رحلات عديدة إلى الجزائر المحروسة، وإحدى رحلاته مدونة، كان شديد الحفظ سافر إلى فاس وأخذ عن ابن شقرون، وفته المنية أثناء عودته من الحج في شهر جمادى الثانية من عام 1233هـ.

[28] هو محمد بن أب بن حميد بن عثمان بن أبي بكر المزمري نسبا التواتي منشأ وموطنا ووفاة، ولد سنة 1096هـ، كان شاعرا لغويا عروضيا ونحويا، له مؤلفات كثيرة في النحو والصرف والعروض والفقه ؛ منها المنظوم والمنثور، نظم مسائل التمرين في أرجوزة، ثم شرحها في كتاب سماه روضة النسرين في مسائل التمرين، وشرح على لامية ابن المجراد في إعراب الجمل، توفي سنة 1160هـ.

المختصرات

المقصود به إيجاز المطولات من الكتب اللغوية؛ وقد تتخذ المختصرات في عمومها شكلين أحدهما نثري، والآخر شعري (نظم)، وقد جعلت النظم نمطا وشكلا من أشكال التصنيف، أما النثري فقد كان لعلماء توات نصيب منه إلا انه بشكل قليل فلم أعثر في الخزائن التواتية إلا على عمل واحد مختصر وهو "مختصر السمين في إعراب القرآن" لعبد الرحمن بن عمر التينيلاني، سماه "الدر المصون في إعراب القرآن"[29].

الشروح

وهذا الأسلوب ليس بدعا على توات وعلمائها، إنما هو طريقة قديمة عند علماء العرب والمسلمين قديما، واتخذ علماء توات هذا الأسلوب من أجل تعليم الناسِ دينَهم ولغتَهم، ومن المتون التي شرحها علماء توات بكثرة مختصر خليل، وكذلك متن ابن عاشر في الفقه المالكي، وفي جانب اللغة العربية وعلومها فقد درس علماء توات علوم اللغة العربية من نحو، وبلاغة، وصرف ؛ فدرسوا مقدمة ابن آجروم في النحو وشرحها الشيخ مولاي أحمد الطاهري الإدريسي (1400هـ) في كتاب سماه "الدر المنظوم شرح على مقدمة ابن آجروم"، كما نجد محمد بن أب المزمري (1160هـ) قبله قد نظم مقدمة ابن آجروم غير ما مرة ثم شرح ذلك النظم، كما وضع سيدي المختار الكنتي شرحا على منظومة المقصور والممدود لابن دريد في علم الصرف، كما قام البعض بشرح أبواب من ألفية ابن مالك في النحو والصرف، والأمر يتعلق بسيدي عبد الله البكري الذي شرح باب اسم الفاعل والصفة المشبهة من الألفية، كما شرح ابن أب القصائد الشعرية منها الشقراطسية في كتاب سماه "الدروع الفارسية"، وقصيدة الهمزية للشيخ البوصيري في كتاب سماه " الذخائر الكنزية في حل ألفاظ الهمزية"، وقصيدة لامية العجم في كتاب سماه "نفث القلم"، إن الشرح كان وسيلة تعليمية سادت في تلك العصور وكان هذا هو الدافع الذي دفع علماء توات إلى هذا النمط من التأليف.

التعاليق

إن التعليق على النص هو أن يضع القارئ (العالم) رأيه وملاحظاته في آخر الكتاب، أو الورقة التي قرأها، أو على حاشيتها، وربما يرجع ذلك إلى قلة وجود مادة الورق نظرا

[29] حققه الأستاذ أحمد جعفري.

لوضع الإقليم الجغرافي والطبيعي، فكان علماء توات يكتبون ويسجلون ملاحظاتهم في أي مكان فارغ من الورقة أمام المعلومة التي يريدون التعليق عليها، وحتى ما بين سطور الورقة، فقد لاحظنا ذلك في ألفية غريب القرآن التي وضع عليها عبد الكريم الحاجب تعليقا ؛ وألفية غريب القرآن هي منظومة من ألف بيت شرح فيها صاحبها ابن العالم غريب القرآن الكريم، وجاء سيدي عبد الكريم الحاجب ووضع تعليقاته عليها فقد كان يكتب على نفس الورقة التي كتبت عليها المنظومة فيضع تعليقاته ما بين السطور، وعلى حاشية الورقة...، يقول عبد الكريم الحاجب معلقا على بيت من أبيات ألفية غريب القرآن ما نصه : "وهذه عبارة الحافظ في الإتقان ونصه : على الخائض في ذلك التثبت والرجوع..."[30] ومن التعليقات قد يكتب العالم في آخر الكتاب قصيدة يشيد فيها بالكتاب وصاحبه وما إلى ذلك.

الحواشي

وهو أن يضع العالم أو القارئ شرح بعض العبارات التي يراها غامضة أو في حاجة إلى شرح وتوضيح من النص، وقد لجأ علماء توات إلى هذا النوع من التصنيف نظرا لحاجتهم إلى ذلك؛ فهم يعمدون إلى النص اللغوي فيكتبون على حواشيه ولذلك سمي حاشية، وكذلك وضع سيدي محمد بن عبد الكريم صاحب درة الأقلام حاشية على شرح السيوطي لألفية ابن مالك في النحو والصرف[31]، وقد عثرت على حاشية كتبت على منظومة "نزهة الحلوم في نظم منثور ابن آجروم" لكاتب لم أتبين اسمه[32]، وفي آخر المنظومة كتبت قصيدة للشيخ عبد الرحمن بن عمر يمدح فيها المنظومة وصاحبها، وهذا الشكل من التصنيف كثير جدا ومنتشر بين علماء توات في القرون السابقة.

النظم

وهو إعادة تأليف كتب أو اختصارها في شكل منظومات شعرية تعليمية، حتى يسهل حفظها على طلبة العلم خاصة في الفقه واللغة، كما فعل ابن أب مع مقدمة ابن آجروم حينما نظمها في منظومة سماها "نزهة الحلوم"قال في مطلعها :

نحـمدك اللهم يا من أنعـــما وعلم الإنسان ما لم يعلـــما

[30] الكتاب مازال مخطوطا،ونسخة منه بخزانة سيدي بونعامة بأقبلي.
[31] محمد الزجلوي، ألفية غريب القرآن،مخطوطة بالخزانة البكرية تمنطيط، ص: 3.
[32] الحاشية بالخزانة البكرية بتمنطيط.

وبك أســـألك أن تصلـــــيا على الذي بالبهاء حلـــــيا
سيدِنا محمد خـــير البـــــشر وآله ما لاح فجر وانتـــشر
وبعد أيها الحبـيب الصـــافي المتلقي الحقَّ بالإنصـــــاف
فذا كتاب نـزهة الحـــــلوم في نظم منثور ابن آجـــروم
وربنا المسؤول في نيل الأمـل وفي قبول القول منا والعـــمل[33]

واهتمام علماء توات بالنظم التعليمي راجع إلى اهتمامهم الشديد بالجانب التعليمي، لأنهم أدركوا بأن العلم هو سلاح الحياة، ولهذا ظهر بتوات عبر أزمنة مختلفة منظومات في شتى علوم اللغة العربية من قبل علماء أجلاء، ويأتي على رأسهم الشيخ محمد بن أب المزمري الذي يكون خليل توات دون منازع ؛ فله منظومات كثيرة في العروض، والنحو، والصرف وسيأتي ذكر بعضها في جدول التصنيفات اللغوية بتوات، ومن بين الذين كان لهم إسهام في كتابة المنظومات اللغوية أذكر على سبيل المثال لا الحصر؛ الشيخ محمد الزجلوي (ابن العالم)، محمد بن بادي، وعبد الكريم بن بابا حيدا...

التأليف

وأقصد به التصنيف في فن من الفنون على غير سابق فهذا النمط والشكل لم يكن لعلماء توات فيه حظ كبير، إلا في المجالات الإبداعية كالشعر والنثر وبشكل خاص في الرسائل والخطب، وكان لهم إسهام في تأليف التراجم والسير والتاريخ، والرحلات؛ فقد كتبوا في هذا المجال الكثير من الكتب التي أرخت لإقليم توات ورجاله، أذكر منها "القول البسيط في أخبار تمنطيط" للشيخ ابن بابا حيدة[34]، و«درة الأقلام في أخبار المغرب بعد الإسلام"[35]، لمحمد بن عبد الكريم بن عبد الحق التمنطيطي، وفي الرحلات "تحفة المجتاز لمعالم أرض الحجاز"[36]، لعبد الكريم بن محمد.

انكب علماء توات على علوم العربية بالدراسة والبحث في جميع فنونها، كما تخصص فيها جملة من العلماء الذين وهبوا أنفسهم للعلم، وما زاد اعتناءَهم بالعربية وعلومها

[33] لمنظومة بحاشيتها في خزانة الأستاذ ابن الوليد عبد القادر بباعبد الله ادرار.
[34] المنظومة في خزانة الأستاذ ابن الوليد عبد القادر بباعبد الله ادرار.
[35] الكتاب حققه الدكتور فرج محمود فرج.
[36] الكتاب مخطوط بالخزانة البكرية بتمنطيط.

محاولةُ فهمهم للقرآن الكريم شأنهم في ذلك شأن علماء الدرس اللغوي العربي قديما، وكذا حرصهم على حفظ التراث العربي الإسلامي من الضياع،

خاتمة

في الختام هذه جملة من النتائج المتوصل إليها :

– المجتمع التواتي مختلط التركيبة السكانية ومتجانسة مما أعطاه خصوصية قد لا تتوفر في غيره من المجتمعات.

– دخول العرب والإسلام إلى إقليم توات منحه قدرا من التمدن والحضارة مما أكسبه ثقافة عربية إسلامية خاصة.

– عدم وصول الأتراك إلى الإقليم جعل لغة التواتيين عربية سليمة.

– اكتمال نضج الدرس اللغوي في إقليم توات كان نتيجة لتفهم الرجل التواتي لمتطلبات الزمن وإدراكه لضرورة الدرس اللغوي لفهم القرآن الكريم والحديث النبوي الشريف.

– اهتمام علماء توات بالتصنيف في الدرس اللغوي زاد فيه ثراء وحفظا.

المصادر والمخطوطات

بن عبد الكريم البكري. درة الأقلام في أخبار المغرب بعد الإسلام، مخطوط، بالخزانة البكرية بتمنطيط.

محمد الزجلوي. ألفية غريب القرآن، مخطوطة بالخزانة البكرية تمنطيط.

مولاي أحمد الطاهري الإدريسي الحسيني. نسيم النفحات من أخبار توات ومن بها من الصالحين والعلماء الثقات، مخطوط، بخزانة كوسان.

المراجع

أحمد أبا الصافي جعفري (1425 –هـ- 2004م). محمد بن اب 1160هـ حياته وآثاره، دار الكتاب العربي، الجزائر، ط: 01.

أحمد العماري (1408هـ- 1988م). توات في مشروع التوسع الفرنسي بالمغرب من حوالي 1850 م إلى 1902م، منشورات كلية الآداب والعلوم الإنسانية بفاس، ط، 01.

بن عبد المؤمن بهية (2006م): الحياة الاجتماعية بإقليم توات خلال القرنين الثامن عشر والتاسع عشر الميلاديين (من خلال نوازل الغنية للبلبالي)، رسالة ماجستير، قسم الحضارة الإسلامية، وهران.

بوساحة (2002م). أصل أقدم اللغات في أسماء أماكن الجزائر، دار هومة الجزائر.

حوتية محمد الصالح(2007م). توّات والأزواد، دار الكتاب العربي، الجزائر، ط: 1.

ابن خلدون عبد الرحمن (1421هـ ـ 2000م). تاريخ ابن خلدون المسمى ديوان المبتدأ والخبر في تاريخ العرب والبربر ومن عاصرهم من ذوي الشأن الأكبر، تح: خليل شحادة، دار الفكر للطباعة والنشر والتوزيع، بيروت، لبنان.

الرصاع أبو عبد الله محمد الأنصاري (1976م). فهرست الرصاع، تحقيق وتعليق محمد العنابي، تونس، المكتبةالعتيقة.

الصديق حاج أحمد (2003م). التاريخ الثقافي لإقليم توات من القرن 11–14هـ/17–20م، ط 1.

عبد الرحمن السعدي (1858م). تاريخ السودان، طبعة هوداس.

فرج محمود فرج (1977م). إقليم توات بين القرنين 18 و19 الملاديين، ديوان المطبوعات الجامعية، الجزائر.

محمد باي بلعالم. التعريف ببعض الجوانب من منطقة توات وحضارتها، (محاضرة) ألقيت في أعمال المهرجان الثقافي الأول للتعريف بتاريخ منطقة أدرار، نقلا عن الشيخ محمد بن عبد الكريم المغيلي، ولاية أدرار 13 ـ14 شعبان 1405هـ / 3 ـ4 ماي 1985م.

محمود شيت خطاب(1397هـ ـ 1977م). عقبة بن نافع الفهري، دار الفكر للطباعة والنشر والتوزيع، بيروت، لبنان، ط، 5.

A.G.P.MARTIN 1908, A la frontière du Maroc les oasis sahariennes. Alger : Edition de L'imprimerie Algérienne.